الفقيه المالكي أبو عمران الفاسي وفكره الأشعري

خالد حسين محمود

كلية الآداب والفنون- جامعة حائل- السعودية

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث شخصية الفقيه أبي عمران الفاسي الذي يعد واحداً من أبرز أعلام المالكية الذين تركوا أثراً كبيراً في تاريخ بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، حيث أسهم بمذهبه المالكي وفكره الأشعري في إحداث تغييرات جذرية في انتماءات بلاد المغرب الفكرية والمذهبية، وأصبح زعيماً شعبياً تبنى مبادرة إصلاحية، تهدف إلى تصحيح الأوضاع الاجتماعية المنحرفة عن الجادة، وتسعى نحو تقويمها، مع إلزام الحكام بالأخذ بمقتضيات الإصلاح وإقامة الحكم على أساس الأحكام، وهو ما انتهى بتأسيس الدولة المرابطية ومشروعها الديني-السياسي- العسكري الشامل، والذي مثل فيه أبو عمران دور العقل المدبر والصانع الأكثر نجاعة بامتياز.

انصبت جهود الباحثين الذين تناولوا الحديث عن أبي عمران الفاسي على سرد سيرته الذاتية، ومناقبه، وأثره العلمي كمقرئ ومحدث وفقيه، بينما غُيبَ فكره الأشعري وما ترتب عليه من مواقف سياسية ومبادرات إصلاحية من قبل أصحاب هذه الكتابات. وهو أمر يُعزى دون شك إلى شح المادة التاريخية القادرة على بناء موضوع متكامل في هذا الجانب؛ نتيجة فقدان المؤلفات التي كتبها هذا الفقيه، فضلاً عن عزوف القدامى عن الحديث عن فكره الأشعري وشخصيته السياسية ودوره التاريخي، ناهيك عن تضارب[1] الروايات الشحيحة التي وردت- وبشكل عفوي- في تلك المصادر بهذا الخصوص لتزيد الأمر تعقيداً.

---

[1]انظر مثلاً كيف تضاربت الروايات حول نسب أبي عمران، فقيل أنه من زناتة. عياض:ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418ه/1998م، ج2، ص280، الذهبي:سير أعلام النبلاء، تحقيق:شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط9 1413هـ ، ج17، ص545، وقيل من صنهاجة. البرزلي:جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002م، ج1، ص221، وقيل من هوارة.ياقوت الحموي:معجم البلدان، ط. دار صادر، بيروت، د. ت، ج4، ص207. واختلفت الروايات حول صحة اسم زعيم قبيلة جدالة الذي التقاه أبو عمران في لقاءٍ محد لقيام دولة المرابطين، فذهب بعضهم إلى أن اسمه " الجوهر".عياض:المصدر السابق، ج2، ص333، ونسبه إلى جزولة، كما اغفل ذكر أبي عمران فجعل لقائه بوجاج بن زللو مباشرة، واخذ ابن الأثير بهذه الرواية. الكامل في التاريخ، تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج8، ص ص 328، 329، في حين ذهب غالبية المؤرخين إلى أن اسمه يحيى بن إبراهيم الجداليانظر على سبيل المثال:البكري:المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص164، ابن عذارى:البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج4، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3 1982م، ص7، ابن أبي زرع:الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط 1972، ص122. كما تباينت الآراء حول تاريخ هذا اللقاء، بين سنوات:427هابن أبي زرع: المصدر السابق، ص122 و429ه مؤلف مجهول: جامع تواريخ فاس، مطبعة برنارد ويزى، بالرم 1878، ص28، و440هـمجهول:الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1979، ص19، ابن خلدون:تاريخ ابن خلدون "المعرف بالعبر"، دار القلم، بيروت، 1984، ج6، ص182، 344هابن عذارى: المصدر السابق، ج3، تحقيق ج. س كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة ، بيروت، د. ت، ص 242، و448هابن الأثير:المصدر السابق، ج8، ص 328.وجعلها ابن الخطيب في"عشر الأربعين وأربعماية"الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 2003، ج4، ص302. كما تضاربت أيضا حول سنة وفاة أبي عمران، فقيل "بعد العشرين وأربعمائة"الحميدي:جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الابياري، نشر- دار الكتاب المصري بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ط3 1410ه/1989م، ص 538، وقيل429هابن بشكوال:الصلة، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني، ط1 1989ه، ص882، الحميري:الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، نشر- مؤسسة ناصر للثقافة -، بيروت ، ط2

وعليه تأتي طبيعة هذه الدراسة التي تسعى نحو إماطة اللثام عن أشعرية هذا الفقيه، وأثرها في تشكيل مسيرته السياسية، اعتماداً على الروايات المصدرية المتناثرة ومحاولة التأليف بينها، وتدعيمها بالإشارات الشاردة التي وردت في المصادر الاستثنائية[2]، وتتبع الأحداث ووضعها في إطارها التاريخي، والاستناد إلى فتاوى أبي عمران وأقواله الفقهية، التي احتفظت بها كتب النوازل والمسائل، والإمساك بأبعادها الأشعرية وطبيعتها السياسية، ودراسة الموضوع بشكل شمولي؛ عبر ربطه بظروف العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وطرح بعض الفرضيات والتكهنات ومحاولة تدعيمها بقرائن قد تكون مقبولة.

رغم غياب المعطيات المصدرية، يمكن القول بأن تفانيه في الدفاع عن مذهب مالك، وعقيدة أهل السنة، ضد المخالفين من أتباع المدارس الفقهية والكلامية الأخرى التي عرفتها بلاد المغرب وقتئذٍ، كان أحد العوامل التي دفعت بأبي عمران الفاسي نحو تبني الفكر الأشعري، الذي يمّكن أتباعه من الخوض في المسائل الكلامية، والتزود بالحجج والأدلة العقلية للرد على المخالفين[3]. لا سيما وأن هذا الفكر قد نشأ في وسط مالكي[4]، وتماشى مع عقيدة المالكية، حيث نصب مؤسسه من نفسه متكلماً "بلسان أهل السنة"، وتميز الفكر"بالانتصار للعقائد السلفية، والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدور أهل البدعة""[5]، والتزم الـ" توسط بين الطرق ونفى التشبيه، واثبت الصفات المعنوية، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف"[6]، وهو ما حدا بالإمام الذهبي"[7] أن يعتبر هذه الطريقة هي " طريقة السلف، وهو الذي أوضحه أبو الحسن وأصحابه، وهو التسليم لنصوص الكتاب والسنة، وبه قال ابن الباقلاني، وابن فورك والكبار إلى زمن أبي المعالي ، ثم زمن الشيخ أبي حامد" ، لذلك كان مالكية المغرب " يستصعبون

1980 م، ص435، وقيل 430هـ، عياض:المصدر السابق، ج2، ص283، الذهبي:المصدر السابق، ج17، ص546، وقيل 457هـ أبو المحاسن:النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، د. ت، ج5، ص77.

[2] وهي التي لا تعالج الظاهرة السياسية بالأصالة، وإنما ترد فيها المادة السياسية بصورة عرضية، وفي سياق آخر كجزء من ظاهرة عامة، سواء كانت فقهية أم تاريخية أم فلسفية أم كلامية أم لغوية. انظر بهذا الخصوص: نصر عارف: في مصادر التراث السياسي الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1994م، ص 99.

[3] Robert Brunschvig, «Mu'tazalisme et as'arisme à Bagdad», Arabica, 9 1962, p. 351.

[4] نجم الدين الهنتاتي:تطور "موقف علماء المالكية بافريقية من الخوض في المسائل الكلامية وتبنيهم للعقيدة الأشعرية"، مجلة معهد الآداب العربية، تونس، ع 55 ، 1992 ، ص302.

[5] ابن خلدون:المصدر السابق، ج6، ص 226.

[6] ابن خلدون: المقدمة ، تحقيق عبد السلام الشدادي، نشر المركز الوطني للبحث العلمي، الدار البيضاء، ط1 2005. ، ج3، ص33.

[7] السير، ج17، ص560.

الخروج عن حرفية ما رسمه الأشعري ولا يرون مخالفة أبي الحسن في نقير ولا قطمير "[8] ، وكانوا يرحلون إلى المشرق للحج ثم ملاقاة رجال الأشعرية"[9]

بقدر المكانة البارزة التي تبوأها أبو عمران في المجتمع المغربي، وما تطلبه ذلك من حاجة شديدة للتسلح بشتى الوسائل القادرة على الدفاع عن مذهبه وعقيدته، بقدر ما كان حرصه الشديد على الخوض في المسائل الكلامية، والتعلق بالفكر الأشعري والتوغل في جزئياته، للارتقاء بمؤهلاته الفكرية لتتناسب وتلك المكانة. ولا غرو، فقد اشتهر الرجل في عصره بأنه "الإمام الكبير العلامة"[10]"، "شيخ القيروان"[11]"و""عالم المغرب"[12]، و"فقيه"[13]المالكية"[14]، "المقدم في وقته"[15]و"زمانه"[16] ، الذي "حاز الذكر ورئاسة الدين"[17]، و"طارت فتاواه في المشرق والمغرب"[18]و"انتهت إليه رياسة العلم"[19]، فكان قضاة الأمصار يستفتونه في كثير من المسائل التي يتعثر عليهم الإجابة عنها[20]، وقد تضمنت فتاواه شواهد قاطعة على تضلعه في الفقه والأصول[21]، حتى اعتبرها شيوخ الفتوى في عصره وبعده مصدراً للتفريع والبناء والتنزيل[22].

---

[8] السبكي:طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمد محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت ج3، ص372

[9] إبراهيم التهامي: الأشعرية في المغرب، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ص12

[10] الذهبي:المصدر السابق، ج17، ص545.

[11]الذهبي: المعين في طبقات المحدثين، تحقيق همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان، عمان، الأردن، 1404هـ ، ص 34.

[12] الذهبي:تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 1998م، ج3، ص198.

[13] الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1 1410هـ/1989م ، ص 606.

[14] أبو المحاسن : المصدر السابق، ج5، ص77.

[15] الحميدي: المصدر السابق، ص 443.

[16] أبو المحاسن : المصدر السابق، ج5، ص77.

[17] عياض : المدارك، ج2، ص279.

[18] الدباغ: معالم الأيمان في معرفة اهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح وآخرين، مكتبة الخانجي، مصر، 1968. ، ج3، ص 159.

[19] الذهبي:معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ، ص 217، أبو المحاسن: المصدر السابق، ج5، ص30.

[20] عياض:المدارك، ج2، ص318، البرزلي:المصدر السابق، ج1، ص 329، ج2، ص239، ج5، ص344-346، الونشريسي: المصدر السابق، ج6، ص238، ج9، ص ص 386-387.

فضلاً عن الدافع الديني، يبدو أن أبا عمران تبنى الفكر الأشعري لغرض سياسي، يكمن في تميز هذا المذهب بالمساندة المطلقة للخلافة العباسية، والعداوة الشديدة للشيعة[23] ، الذين حكموا بلاد المغرب، ونصبوا العداء للمالكية، ولم يكتفوا بحرمانهم من الامتيازات التي تمتعوا بها خلال العصر الأغلبي، لكنهم أمعنوا فيهم محانةً، ومصادرةً، وضرباً، وتعذيباً، وتشهيراً، وصلباً، وتقتيلاً [24]، وهو ما أثلج صدر القاضي الشيعي ابن حيون[25] فراح يعبر عن ذلك بقوله عن المالكية:"كان فيهم يومئذ شيوخ ووجوه وفقهاء لهم مناظر وعقول ورجاحة والسنة. . فانقطع ذلك منهم. . . وكسف الله نورهم وأمات بهاءهم واذهب بهجتهم". .

كذلك كان الاستناد إلى الفكر الأشعري يعد نوعاً من المقاومة الجدلية التي اتبعها المالكية في مقاومة السلطة الشيعية، والتي برز فيها أعلامهم[26] ، الذين آثر أبو عمران السير على دربهم، باعتباره لسان أهل السنة ، الناطق والذاب عن بيضة الدين.

لا نعرف على وجه الدقة زمنية اعتناق أبي عمران للأشعرية، غير أن المرجح أن معرفته بها كانت في موطنه الأول مدينة فاس، التي عرفت الأشعرية[27]على يد الفقيه المالكي الشهير دراس بن إسماعيلت 357هـ، الذي كان يجتمع

---

[21] انظر طرفا منها عند:البرزلي:المصدر السابق، ج1، ص ص175، 191ج3، ص ص167-168، 311-312، 382، ج5، ص ص54-55، 99، 103، الونشريسي:المصدر السابق، ج4، ص422، ج7، ص ص291، 300.

[22] منهم على سبيل المثال الأئمة الداودي والسيوري واللخمي والباجي وابن رشد وابن الحاج. الونشريسي: المصدر السابق، ج1، ص248، ، ج3، ص ص409، 641، ج4، ص ص51، 288، 330، ج5، ص ص 127، 199 ، ج9، ص ص 452، 545، 548، ج10، ص103.

[23] نجم الدين الهنتاتي: ، المرجع السابق، ص304.

[24] انظر بهذا الخصوص:الخشني: قضاة قرطبة وعلماء افريقية، تحقيق السيد عزت العطار، ط2 مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994ص ص 159-160، 231، 283، ابن الفرضي:تاريخ علماء الأندلس، تحقيق **السيد عزت العطار** ، ، ط2 مكتبة الخانجي ، القاهرة، 1988، ج1، ص 143، عياض:المدارك، ج2، ص 229-230، ابن عذارى:المصدر السابق، ج1، ص187، الدباغ:المصدر السابق، ج2، ص 261-265، 288، ج3، ص11، 29-30، ثم تابع مقال:

Idris H: «l'aube du Malikisme Ifriqiyen», Studia Islamica, t. 33, 1971,pp. 19-40

[25] كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1975، ص291.

[26] عن هذا النوع من المقاومة، وأشهر رواده من المالكية انظر:المالكي:المصدر السابق، ج2، ص75، الدباغ:المصدر السابقج2، ص309 ، ج3، ص 93.

[27] رفع إلى الفقيه الأندلسي ابن رشد نازلة حول فرقة من الأشاعرة انتشرت بمدينة فاس كانت تتعرض للسبي والنهب من قبل أهل المدينة. انظر: ابن رشد: الفتاوى، تحقيق المختار بن طاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي،

عليه طلبة العلم لقراءة الفقه بمسجده بجي مصمودة[28]، والذي ادخل الأشعرية إلى المدينة وألف بها رسالة في الدفاع عن الأشعرية، وتولى ابن حزم الظاهري مهمة دحضها[29].

تأثر أبو عمران بفكر أستاذه الأصيلي ت392هـ في الأندلس، والذي وصفته المصادر بأنه "كان عالماً بالكلام والنظر منسوباً إلى معرفة الحديث . . والقيام بمذهب المالكية والجدل فيه على أصول البغداديين. . متكلم على الأصول وترك التقليد. . ويحض أصحابه عليه"[30]، وربما كان له دور في توجيه تلميذه نحو بغداد، لملاقاة أعلام الأشعرية بها، والأخذ عنهم، حيث أقام أبو عمران بها عدة سنوات[31].

ولما انتقل أبو عمران إلى القيروان زادت صلته بالأشعرية نتيجة تتلمذه على أستاذه أبي الحسن القابسي الذي وصفته المصادر[32] بأنه كان" فقيها أصولياً متكلماً"، "له تصانيف فائقة في الأصول"[33]، ألف رسالة في مناقب أبي

1987، جـ2، ص ص 943، 944. ثم تابع :احمد حمدان العلمي:"دور فاس في التنظير لعقيدة المغاربة"، مقال منشور في كتاب فاس في تاريخ المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 2009 ، ص167-260.

[28] التميمي:المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، تطوان الرباط 2002 م، ج2، 181، الشرلط: الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق زهراء النظام ، منشورات كلية الآداب ، ط1 ، الرباط 1997، ص50 .

[29] ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، ط دار المنصور، الرباط، 1973، ص ص194-195، روجيه إدريس:الدولة الصنهاجيةتاريخ افريقية في عهد بني زيري، نقله إلى العربية حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1 1992م، ج2، ص ص316، 330.

[30] عياض:المدارك، ج2، ص243. والذي أورد أيضا طرفا من فتاويه للمنصور ابن أبي عامر و التي تحمل بعدا أشعرياً.

[31]عياض:المصدر السابق، ج2، ص 242.

[32]عياض: المصدر نفسه، ج2، ص224، ابن عساكر: تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي حسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق، 1347هـ ، ص 122، ابن فرحون:الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت ، ص296.

[33] الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت ، ط2 1984، ج3، ص88، ومن أشهرها كتاب"الاعتقادات"، وكتاب " المبعد عن شبه التأويل". عياض: المصدر السابق، ج2، ص225، ابن فرحون : المصدر السابق، 296.

الحسن الأشعري أثنى فيها عليه وذكر فضله وإمامته[34]، بل واعتبره بعض الباحثين أول من حمل معالم المذهب الأشعري إلى الغرب الإسلامي[35].

كما قضى أبو عمران فترة من الزمن يدرس على أستاذه الهروى؛ الذي كان على"مذهب مالك ومذهب الأشعري. . . وحمله عنه المغاربة إلى المغرب والأندلس"[36].

بيد أن نضج الفكر الأشعري لأبي عمران كان بالعراق على يد أستاذه الباقلانى-" المتكلم على مذهب الأشعري"[37]و"ناصر مذهبه ومؤيد اعتقاده"[38]- الذي لم يدرس عليه أبو عمران غير علم الكلام[39]؛ لأنه كان أعرف الناس به "وأحسنهم فيه خاطراً، وأجودهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وأصحهم عبارة"[40]، حتى أنه نجح في إعادة بناء النسق الأشعري وأقام صرحه-متأثراً بتعاظم المد [1]الليبرالي-وغصت كتبه بالنزعة العقلية[41]. وقد أثنى ابن خلدون[42]على الطريقة التي اتبعها الباقلانى، واعتبرها من أحسن الطرق؛ ، لذا؛ فقد حق لبعض الباحثين[43] التأكيد على أن "القيمة

---

[34]ابن عساكر:المصدر السابق، ص122-123. عن أشعرية أبي الحسن القابسي- اعتماداً على النصوص المصدرية انظر يوسف احنانة:تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، 2003م، ص ص52-54.

[35] حسن حسي عبد الوهاب:الإمام المازري، دار الكتب الشرقية، تونس، 1955، ص32.

[36] الذهبي: السير، ج17، ص 557، ابن عساكر: المصدر السابق، ص 255، ابن تيمية: درء التعارض بين العقل و النقل، تحقيق محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط2 1991م، ج2، ص ص 101-102.

[37] ابن عساكر:المصدر السابق ، ص217 .

[38]ابن خلكان:وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1994م، ج3، ص284، ج4، ص269.

[39] عياض: المدارك، ج2، ص280. وعن العلاقة الجدلية بين الأشعرية وعلم الأصول عند أبي عمران انظر: النفراوى:الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، تحقيق رضا فرحات، مكتبة الثقافة الدينيةد. ت ، ج1، ص160.

[40] النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط5 1983م، ص37.

[41] محمود إسماعيل : محمود إسماعيل:سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج3طور الازدهار، مؤسسة الانتشار العربي، القاهرة، 2000م ، ج3، ص91

[42] ا لمقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، نشر المركز الوطني للبحث العلمي، الدار البيضاء، ط1 2005، ، ج3، ص 34.

[43] محمود الخضيرى ومحمد أبو ريدة:مقدمة تحقيق كتاب التمهيد للباقلانى، دار الفكر العربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1395هـ، ص 15.

الكبرى لعمل الباقلاني كانت في التنهيج، وفي بناء مذهب الأشاعرة الكلامي والاعتقادي بناءً منظماً، لا من حيث الطريقة المنطقية الجدلية فحسب، بل من حيث وضع المقدمات التي تنبني عليها الأدلة، ومن حيث ترتيب هذه المقدمات بعضها على بعض"، وحسب باحث آخر فان "الباقلانى قد انتقل بالتأليف الأصولي إلى مرحلة التوسع الشمولي والى مرحلة التمازج والتفاعل مع علم الكلام"[44].

لقد أعطى ظهور الباقلاني في المشرق – نهاية القرن 4هـ/ 10م كحامل للواء الأشعرية - دفعةً جديدة للتسرب الأشعري في المغرب، والسبب في ذلك أنه بالإضافة إلى أشعريته؛ فإنه كان من أعيان المذهب المالكي - مذهب المغاربة- بل" إليه انتهت رئاسة المالكيين في وقته"[45]، وكان تأثيره في المغاربة كبيراً، حيث أصبح الباقلاني محج طلبة المغرب يأخذون عنه المذهب المالكي و الطريقة الأشعرية معا، وصار مرجعهم في المسائل و النوازل[46]. لكل ذلك، كان طبيعياً أن تترك عملية التلقي عن الباقلاني في نفس تلميذه المغربي أثراً عميقاً، وهو ما اعترف به أبو عمران نفسه بقوله عنه: "سيف أهل السنة في زمانه، وإمام متكلمي أهل الحق. . . . رحلت إلى بغداد وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي، وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول، فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر ورأيت كلامه في الأصول والفقه، والمؤالف والمخالف، حقرت نفسي وقلت: لا أعلم من العلم شيئاً. ورجعت عنده كالمبتدئ"[47].

نتساءل هنا عن المواقف السياسية والمبادرات الإصلاحية التي تبناها أبو عمران الفاسي، وكيف تأثرت بفكره الأشعري؟

للإجابة على هذا السؤال، نسجل بداية أن اهتمام أبي عمران الفاسي بالمسالة السياسية خضع تحت ضغط موسوعيته العلمية؛ وشموليته المعرفية؛ وتضلعه على نحو خاص بالفقه وعلم الأصول؛ واعتناقه للمذهب الأشعري . فمن المتعارف عليه عند مفكري الاجتماع السياسي أن "كل طرق المعرفة في الإسلام تؤدى إلى السياسة"[48]، وأن ثمة تداخل مشهود في الإسلام بين "المعرفي" و"السياسي"؛ لأن كلاهما ينطلقان من كتاب يعتبر الدليل الأول والأصل المطلق الذي تلحق به كل الأحكام؛ والمرجع المعياري الأول لما ينبغي أن يضبط به مجتمع

---

[44] احمد الريسونى: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبى، دار الكلمة ، المنصورة، ط1 1997، ص 28.

[45] عياض: المدارك، ج2، ص204، الذهبي: السير، ج17، ص191، ابن خلكان:المصدر السابق، ج3، ص269.

[46] إبراهيم التهامي:الأشعرية في المغرب وموقف العلماء منها، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1 2006 م، ص ص 13 ، 14 .

[47] عياض: المدارك، ج2، ص 204.

[48] عبد المجيد الصغير:الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشريعة، دار المنتخب العربي، ط1 1994م، ص9.

الناس[49]. كما أن علم الكلام في تلك الفترة أضحى يمثل مجالاً يلتقي فيه الدين بالسياسة[50]، ويحمل بين طياته أبعاداً سياسية وتاريخية واجتماعية، يمثل حضورها ثقلاً في النص الكلامي[51]. أما علم الأصول فقد بات يعكس منذ تأسيسه الهموم الأخلاقية والسياسية التي كانت موضوع تجربة رجل العلم مع دولة الخلافة[52]، وأصبح مجالاً واسعاً لتقاطع السياسي والمعرفي في التجربتين السياسية والفقهية في الإسلام[53].

لا تعوز القرائن الدالة على أن مولد الفكر الأشعري بالمشرق خلال القرن الهجري الرابع، وتطوره في القرن الهجري الموالي على الخصوص، جاء نتيجة جملة من التحولات السياسية والاجتماعية والفكرية، والتي كانت الأشعرية تعبيراً عنها، فأمام تعاظم المد الشيعي؛ والفكر الليبرالي الاعتزالي، وفرق الزندقة المتشبعة بالموروث العقلاني الفلسفي؛ والآراء والأفكار الغامضة لحضارة ما قبل الإسلام؛ وعجز الخلافة العباسية عن مواجهتها لا سيما فكرياً؛ كان لابد من الاعتماد على المذهب الأشعري للارتفاع بعقيدة أهل السنة إلى مستوى التحديات، وهو ما نجح فيه مؤسس المذهب بشكل كبير، حيث تمكن أن يقدم للخلافة العباسية الصيغة الإيديولوجية المناسبة لها [54].

كان الدافع السياسي أيضاً وراء دخول المذهب الأشعري إلى بلاد المغرب، حيث حمل الفقيه التونسي إبراهيم بن عبيدالله الزبيدى المشهور بالقلانسى ت359هـ الفكر الأشعري إلى افريقية-وهو ما حدا بالبرزلى[55] أن يعتبره أحد " مشايخ الأشعرية"- بهدف معارضة المذهب الشيعي، وقد ألف في ذلك كتاباً بعنوان"الإمامة والرد على الرافضة"، مما عرضه للاضطهاد والتعذيب والسجن من قبل الفاطميين[56]. وبالدافع ذاته أرسل الباقلانى عالمين أشعريين لنشر الفكر الأشعري بالمغرب، هما ابن حاتم

---

[49] على أومليل:"السلطة السياسية والسلطة العلمية:الغزالي، ابن تومرت، ابن رشد"، ضمن ندوة:أبو حامد الغزالي:دراسات في فكره وعصره وتأثيره، كلية الآداب، الرباط، 1988، ص 12. وفى هذا الصدد يقول الغزالي" أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا. . وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين. . وأشرف هذه الصناعات أصولها، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات . . لذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم". انظر كتابه:إحياء علوم الدين، نشر مكتبة ومطبعة كرياطه فوترا ، سماراغ، اندونيسيا، د. ت، ج1، ص14.

[50] أومليل: السلطة الثقافية والسلطة السياسية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1996، ص 210.

[51] سعيد بنسعيد العلوي:الخطاب الأشعري؛ مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي، دار المنتخب العربي، بيروت 1981، ص60.

[52] عبد المجيد الصغير: المرجع السابق، ص 158.

[53] عبد المجيد الصغير : المرجع نفسه، ص 11

[54] محمود إسماعيل:المرجع السابق، ج3، ص ص 78- 95.

[55] المصدر السابق، ج1، ص 387.

[56] عياض: المدارك، ج2، ص ص 162.

الأزديت423هـ، وأبو طاهر البغداديت448هـ، واللذين قاما بدور سياسي لفائدة الخليفة العباسي، وسيراً على طريقة حذاق الدعاة السياسيين جعلا من الزهد والتقشف والتواضع وسائل لتحقيق أهدافها[57]. ولا نستبعد كذلك أن التداخل الواضح بين الفكر الأشعري من جهة والمساندة للعباسيين والكراهية للشيعة من جهة أخرى، كان وراء نجاح هذا التيار الأشعري في القيروان في إعلان بني زيرى القطيعة عن الفاطميين، وإعلان التبعية لأعدائهم العباسيين، والذي لعب فيه الباقلانى – مع تلميذه أبي عمران الفاسي- دوراً مشهوداً باعتباره رأس الأشعرية، وشيخ المالكية بالمشرق، والذي كان خير حافز للمتعلمين المغاربة كي يشدوا إليه الرحال لطلب فقهه، فالتحم عندهم مذهبه الفقهي بمنهجه الأشعري[58].

تدفع المعطيات المصدرية إلى الظن بأن نقطة الانطلاق في مسيرة الفقيه أبي عمران السياسية كانت في مسقط رأسه مدينة فاس، تلك المدينة التي عاشت خلال الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري فراغاً سياسياً هائلاً؛ نتيجة انهيار دولة الأدارسة؛ ودخول المنطقة في صراع عنيف ومواجهات دامية دارت رحاها بين الفاطميين وحلفائهم الزيريين من ناحية، والعامريين في الأندلس من ناحية أخرى، إلى أن انفرد بحكم المدينة الزناتيون380-462هـالذين عجت فاس في عهدهم بالفتن؛ وتعاورتها التبعيات؛ وعاشت أحداثاً مأساوية[59]، جعلت أهلها يعيشون تحت ضغط السندان والمطرقة؛ حيث تردت الأحوال المعيشية؛ وشاعت الفوضى الأمنية؛ وتفشي الظلم الاجتماعي، وعم الجوع والغلاء، وعدمت الأقوات، وصارت البلاد مرتعاً للسفك والنهب والخطف[60]. ولم يشفع كل ذلك عند حكام المدينة؛ فراحوا يثقلون كاهل السكان بشتى ألوان الجبايات والمغارم ؛ وتوالى منهم الظلم والعدوان[61]؛ حتى أن رؤساءهم كانوا "يأخذون أموال التجار، فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك ولا يتجرأ أن يكلمهم فيه، ومن لم يوافقهم في شيء من ذلك أو صدهم عنه قتلوه . . . " [62]. بل اقتحموا على الناس ديارهم، ونهبوا ما فيها من الأموال والأقوات، وتعرضوا للنساء والصبيان، مما دعي السكان إلى اتخاذ المطامير والمخابئ للاختفاء بها [63]، واضطر آخرون

---

[57]ابن عساكر: تبيين كذب المفترى، ص 121-122.

[58]عياض: المدارك، ج2، ص ص 204 ، 228، 280 .

[59] انظر طرفاً من هذه الأحداث وتداعياتها عند ابن أبي زرع:المصدر السابق، ص 102-108، ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص231-252.

[60] الازموري:بهجة الناظرين وانس العارفين، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم 1437، ورقة 129، 130، ابن القاضي:المصدر السابق، ج1 ص338، مجهول: جمع تواريخ فاس، ص 21.

[61]مجهول: نبذ تاريخية، ص 42، ابن الأحمر: المصدر السابق، ص 28.

[62] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 100.

[63] ابن خاقان:قلائد العقيان، قدم له ووضع فهارسه محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، سلسة"من تراثنا الإسلامي"، رقم1، ص 30، ابن القاضي:المصدر السابق، ج1 ص338، مجهول: نبذ تاريخية، ص 42، الناصرى:الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط1 1997م، ج1 ص206-207.

منهم للالتجاء إلي أربطة الأولياء والمتصوفة والتحصن فيها، وإن لم يمنع ذلك من وقوع بعضهم في قبضة تلك الجماعة التي رصد أفرادها مخارج المدينة ومنافذها [64].

كان بديهياً أن يتجلى موقف سياسي صلب للفقيه أبي عمران تجاه تلك الأوضاع، فقد أكدت روايات المصادر أنه "كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة من أهلها العاملين عليها لمغرواة، فاستقر بالقيروان" [65]

لا شك أن موقف أبي عمران هذا ينطلق من قناعته برؤية أشعرية تذهب إلى أن الحاكم "إذا تواصل منه العصيان وفشا منه العدوان، وظهر الفساد وزال السداد، وتعطلت الحقوق والحدود وارتفعت الصيانة، ووضحت الخيانة، واستجرأ الظلمة، ولم يجد المظلوم منصفاً ممن ظلم، وتداعى الخلل. و عظمت جنايته وكثرت عاديته وفشا احتكامه واهتضامه، وبدت فضاحاته وتتابعت عثراته. وان اتفق رجل مطاع ذو أتباع وأشياع ويقوم محتسبا آمراً بالمعروف ناهيًا عن المنكر. فليمض في ذلك قدما والله نصيره. " [66]، وراحت فتاوى أبي عمران – والتي صدرت غالباً خلال تلك الفترة- تؤكد على قناعته بتلك الرؤية، فقد ذهب إلى أن " الغاصب ظالم غير محسن، ومن ظلم فواجب أن يحمل عليه"[67]، وأن "أحكام الجماعة الذين تمتد إليهم الأمور عند عدم السلطان نافذ منها ما جرى على الصواب والسداد في كل ما يجوز فيه حكم السلطان"[68]و"أن جماعة العدول تقوم مقام الإمام في المحارب وفي القصاص إنما ذلك حيث يتعذر تناول السلطان"[69] ، ولعل في فتواه بأن من باع حراً يجد ألف جلدة ويسجن سنة ويؤدى ديته غالى أهله"[70]، ما يؤكد رغبته في مواجهة حالة الفوضى - نتيجة غياب السلطة- التي عانت منها مدينة فاس خلال تلك الفترة ضمن غيرها من البقاع المغربية.

وعليه، فيجب الانتباه إلى أن دعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ التي تبناها أبو عمران في فاس خلال تلك الفترة؛ كانت تتعلق في الأساس بحالة سياسية تهدف نحو التصدي لحكام زناتة؛ وما أحدثوه من المظالم، ولا

---

[64] ابن الزيات التادلي: المعزى في مناقب أبي يعزي، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب، تحت رقم 1249 تاريخ تيمور، ميكروفيلم 227703، ورقة 52، الدرعي:الدرر المرصعة في أخبار أعيان درعة، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم 1610 تاريخ، ورقة 62 .

[65]ابن الأحمر: المصدر السابق، ص 44.

[66] الجويني:غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق ودراسة مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم، دار الدعوة للطبع والنشر، الإسكندرية، د. ت، ص ص80 ، 88-89.

[67] البرزلي: المصدر السابق، ج5، ص 113. .

[68]الونشريسي: المصدر السابق، ج10، ص103.

[69] الرعيني: مواهب الجليل لشريح مختصر الخليل، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1423هـ/2003م. ، ج5، ص 569.

[70] الرعيني: المصدر السابق، ج7، ص330.

شك أنها كانت واحدة من القواعد الهامة التي أسست لقيام دولة المرابطين "التي قامت بعد الأربعين والأربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم"، حسب شهادة البكري [71]، يضاف إلى ذلك ما أورده ابن الأحمر[72] من أن أبا عمران عند اجتماعه بالأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي " ندبه إلى. . . قتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم، واستنزال رؤسائهم من الولاية، فوعده يحيي بالنهوض إلى ذلك"، مما يدحض الزعم القائل بأن مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مخيلة أبي عمران كان يتعلق بالنهي عن اجتماع أهل الزهد والعبادة، الذين كانوا يجمعون بين قراءة القرآن وحكاية قصص الصالحين وإنشاد الشعر[73]، ولا أدل على ذلك من تلك الشواهد التي تؤكد على أن الرجل كان من أهل الزهد والتصوف تأثراً بأستاذه القابسي، الذي أقام أبو عمران على قبره فسطاطاً ومكث فيه شهراً يمارس ألوانا من الزهد والتصوف[74]، كما انه ترك عند تلامذته أثراً كبيراً في هذا الجانب[75]، وكانت شهرته الصوفية وراء تلقيبه "بالشيخ الولي"[76]، وتحمل الناس مشاق الرحلات الطويلة للتبرك والتوسل به لجلب منفعة أو دفع ضر، سواء في حياته[77]أو بعد وفاته[78]، وهو ما دفع البعض إلى الإلحاح في وصاياهم بان يدفنوا بجوار قبر أبي عمران " بقصد التبرك"[79].

واعتماداً على نص صريح عند ابن الأحمر[80] فإن الذين تولوا مهمة طرد أبي عمران من فاس هم عمالها ووجهاؤها "لنهبه لهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغارم، وأخذهم أموال الناس بغير حق، وأعانوا على ذلك ولاة أمرهم من بني أبي العافية المكناسيين ومغراوة وبني يفرن. . ولذلك نهاهم أبو عمران فأخرجوه بسبب ذلك واستقر بالقيروان"، وهو ما يدحض زعماً آخر بأن اتجاه الرجل إلى القيروان كان قرارا اختيارياً هدفه طلب العلم ومجالسة العلماء[81].

---

[71] المصدر السابق، ص164.

[72] بيوتات فاس الكبرى، ط دار المنصور، الرباط، 1972، ص 28.

[73] عبد الله كنون:المرجع السابق، ص52- 53.

[74]الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص 164.

[75] التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق احمد التوفيق، الدار البيضاء 1984، ص ص 89، 90، ابن قنفد:انس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وادولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص 106، الناصري:المصدر السابق، ج2، ص7.

[76]ابن أبي دينار:المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تونس، 1286هـ، ص 101.

[77]ابن الأحمر: المصدر السابق، ص 27.

[78]الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص 164 .

[79] محمد الجودي القيرواني:تاريخ قضاة القيروان، نشر وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب، د. ت، ص 121.

[80]المصدر السابق، ص ص 27-28.

[81] محمد الفاسي:" عبدالله بن ياسين وانتشار الإسلام بإفريقيا"، المجلة الإسلامية، ع 12، 1982م، ص 29.

نستشف من بعض الروايات[82]أن أشعرية أبي عمران ورفضه للتقليد لا سيما في العقائد[83]كانت وراء مباركة مناوئيه من فقهاء السلطة المحافظين لعملية طرده من فاس؛ الذين اتهموه في عقيدته نتيجة اشتغاله بعلم الكلام وتبنيه للفكر الأشعري، اللذين أبدى هؤلاء التقليديين تجاهها صدوداً ملحوظاً، لأنهم كانوا لا "يدخلون في الكلام. . ولا يخوضون في المعقولات"[84]، وينافرون "الاعتقاد على طريق الأشعرية. . ويعادون من ظهرت عليه، شديداً أمرهم في ذلك"[85]، حتى صار أهل الأهواء عندهم "هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعريا كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام، ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استتيب منها"[86]، واتهموا من اشتغل بعلم الكلام أنهم" قادة حيرة وعماية"[87]من" أهل السفسطة المسخرين لحماقات كتب ابن فورك والباقلاني"[88]، واعتبروا أكثر مقالاتهم " شرك مجرد وإبطال للتوحيد . . . وحماقة ممزوجة بكفر"[89]، لذلك لم يتورعوا عن إصدار فتوى صريحة بـ" تكفير كل من ظهر منه الخوض في علم الكلام وكراهة السلف له[90]، وقد تأسوا في موقفهم هذا بالإمام مالك بن انس؛ الذي كان يرفض الجواب عن الأسئلة الافتراضية، أو الانشغال بالمسائل النظرية، ويتجنب الخوض في المسائل الكلامية، ويتهم الخائضين فيها بأنهم أهل الأهواء والبدع، الذين لا تجوز شهادتهم أو إجارة كتبهم [91]

لقد مثل الفقيه أبو عمران-الذي اشتغل بعلم العقليات[92]، وكان ذا اهتمام بالكيمياء[93]والتنجيم[94]المحرمين من قبل الفقهاء[95]- رائداً لمدرسة التجديد التي دخلت في صراع كبير مع مدرسة التقليد ذات التعلق الضيق بالنص، والتي

---

[82]ابن فرحون: المصدر السابق، ص296، ابن الأحمر:المصدر السابق، ص ص 27-28.

[83] انظر حول هذه المسالة: يوسف احنانة:المرجع السابق، ص63-65.

[84] الذهبي: السير، ج17، ص 557.

[85] المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1 1368هـ، ص 184.

[86]ابن عبد البر:جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار الحرمين للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ص 943.

[87] ابن رشد:المصدر السابق، ص 804.

[88]ابن حزم : الرسائل، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج3، ط1 1983، ص 193.

[89] ابن حزم:الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد بن إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط2 1996، ج2، ص ص 302، 303.

[90] المراكشي: المصدر السابق، ص172، ابن رشد : المصدر السابق، ص 804.

[91] انظر تفصيلاً لذلك عند السكوني:عيون المناظرات، تحقيق سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1976، ص ص 204-205، عياض: المدارك، ج1، ص88.

[92] الذهبي: السير، ج17، ص 545.

اعتصم أصحابها بسلطة السلف ضد سلطة العقل البياني والمنهجية التعقيلية للنصوص، واعتمدوا "الجمود على العبارات الظاهرة والوقوف معها"[96]، ورفضوا الخوض في المسائل الكلامية، واخرجوا المتكلمين من زمرة العلماء، وانشغلوا بقضايا تافهة، لم يسلم منها حتى أولئك الذين اشتهروا بالمجادلات الشرعية، وكانوا أكثر تفتحاً من غيرهم[97]، وهو ما يفسر تلك المناظرات التي دارت رحاها بين أبي عمران وبين أقطاب الفكر التقليدي[98]، فضلاً عما دب بينه وبين بعضهم من "خلاف ونزاع ومراجعة"[99]، بلغت من العمق أن منع بعض شيوخ تلك المدرسة تلامذتهم من حضور دروس أبي عمران أو النقل عنه، مما يشي بدلالة ضمنية عن فتوى غير مباشرة بدخول الأمر في دائرة التحريم[100]، وعليه نفهم ما قرره فقهاء المدرسة التقليدية[101]من حرمة الفتوى من الكتب التي يميل مؤلفوها المالكية إلى علم الكلام، ولا يعتمدون النقل في فتواهم من الكتب المشهورة الموثوق في التزام أصحابها بنهج مالك في الالتزام بالنص والبعد عن الرأي والتأويل، والتي تندرج تحتها كتب أبي عمران.

لم يكن اختيار أبي عمران للقيروان – بعد خروجه من فاس- حدثاً اعتباطياً، ففضلاً عن كونها موطن أستاذه القابسي الأشعري، كانت المدينة منذ مطلع القرن الخامس الهجري عاصمة الثقافة بالغرب الإسلامي[102]، استناداً إلى تاريخها العلمي والسياسي[103]، فضلاً عن كونها مركزاً تجارياً هاماً تتقاطر عليه قوافل التجارة والحجيج من كل مكان[104]، ومعقلاً للمالكية الذين كونوا بها - مع دخول العصر الفاطمي- فئة اجتماعية متنفذة لها ثقلها الكبير في الشئون

---

93 الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص 163.

94 ابن الأزرق: : بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق سامي النشار، ط وزارة الأعلام، العراق، د. ت. ، ص151.

95 ابن حزم: الرسائل، ج4، ص62.

96السبكي:المصدر السابق، ج6، ص244.

97 روجيه إدريس: المرجع السابق، ج2، ص312.

98 عياض : المدارك، ج2، ص 283، الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص168.

99عياض:نفسه.

100عياض:المدارك، ج2، ص 279، 281، 283، الدباغ:ج3، ص155. وهو الموقف ذاته الذي اتخذه فقهاء المشرق من الباقلاني، فقد أعلن الفقيه أبا حامد الإسفراييني ت406هأمام الناس إنه بريء من مذهب الباقلاني، وقد نهى بعض أصحابه عن الدخول على الباقلاني لدراسة علم الكلام، و قال له:" فإياك وإياه ، فإنه مبتدع ، يدعو الناس إلى الضلالة ، و إلا فلا تحضر مجلسي". ابن تيمية: المصدر السابق ج 2 ص 97.

101 انظر القرافي:الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، نشر ومراجعة عزت العطار، القاهرة ، 1938، ص 77.

102 المراكشي:المصدر السابق، ص502، ياقوت الحموي:معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1993، ج6، ص2636 .

103الحميري:المصدر السابق، ص406، ابن الخطيب: المصدر السابق، ج4، ص302.

104 المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3 1991، ص225.

السياسية والقضائية، كما تدعمت مصادر ثروتها وتنوعت بفضل الأحباس[105]، ولا شك أنها عوامل متضافرة تهيأ المناخ الأمثل لممارسة ونشر دعوته الدينية والسياسية ومنهجه الإصلاحي .

لم تكن تجربة فاس – رغم قسوتها- لتثني أبا عمران عن موقفه الصلب في التصدي لممارسات الحكام الجائرة، والوقوف أمامها بكل شدة، وهو ما دفعه سريعاً إلى الانضمام في زمرة المالكية المناهضين للظلم والمتصدين لمظاهر الجور والاعتداء، والذين تزعمهم أستاذه القابسي، والذي تجلى دوره بشكل لافت عقب تلك الحادثة التي هزت مدينة المهدية؛ واستدعت موقفاً صلباً ومواجهة قوية، فقد اغتصب نصراني من حاشية البيت الزيري صبية عربية شريفة، مما أدى إلى قتله على يد العامة، الأمر الذي أثار حفيظة الأمير باديس بن زيري 386-406هـ، فأمر بإرسال قوة عسكرية إلى المهدية لمعاقبة أهلها، مما استدعى موقفاً جريئاً من الشيخ القابسي، الذي انتدب أبا عمران الفاسي، الذي كان "من اجل أصحابه"[106] و" أكبر تلامذته"[107]، ضمن مجموعة أخرى من تلامذته - الذين اجتمعوا حوله لحمايته من بطش الأمير الزيري- وحمّلهم رسالة مكتوبة ذات طابع ثوري، وأمرهم بقراءتها على منبر المسجد الجامع بالقيروان؛ لتهييج مشاعر الناس ضد الأمير . ودون تردد؛ اندفع أبو عمران مع صحبته نحو المسجد، فقرئت الرسالة بصيغتها العنيفة، ويبدو أنها أحدثت تأثيراً كبيراً على العامة، حتى أن السلطة الزيرية آثرت احتواء الموقف خشية وقوع ثورة عنيفة يقودها القابسي وتلامذته[108].

استناداً إلى معطيات المصادر؛ يمكن التكهن بان الصراع الذي دارت رحاه أواخر القرن الرابع وبداية الخامس الهجريين بين المذهبين السني بفرعيه الأشعري والمالكي من جهة، والشيعي من جهة أخرى، قد نتج عنه إقدام المعسكر السني على وضع خطة محكمة نسجت تفاصيلها في المشرق، بمشاركة الخليفة العباسي القادر، والفقيه المالكي الأشعري الباقلاني، ومالكية المغرب لا سيما القابسي[109]وتلميذه الأول أبي عمران الفاسي، وكانت تهدف في الأساس

---

[105] انظر حول هذه المسالة مقال لنجم الدين الهنتاتي:"الأحباس بافريقية وعلماء المالكية إلى منتصف القرن 6هـ/12م" ، الكراسات التونسية، ع 174، الثلاثية الثالثة لسنة 1996، ص ص 79-121.

[106] الذهبي:القراء، ج1، ص 389 ، أبو المحاسن: المصدر السابق، ج5، ص30.

[107] الذهبي :السير، ج17، ص 545.

[108] عياض: المدارك، ج2، ص226، الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص140.

[109]عن رحلات القابسي إلى المشرق انظر عياض:المصدر السابق، ج2، ص224، ابن خلكان:المصدر السابق، ج3، ص320، ابن فرحون:المصدر السابق، ص296. ولما كان القابسي قد أُصيب بالعمى بعد استقراره بالقيروان الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص139، مما صعب عليه مهمة الترحال إلى المشرق ، فلعله انتدب إلى هذه المهمة تلميذه النجيب أبا عمران ، الذي واصل تنفيذ الخطة بعد وفاة أستاذه عام 403 هـ.

نحو مواجهة الفاطميين الشيعة؛ والسعي إلى تطويق دولتهم من الشرق والغرب، من خلال إقامة كيان سياسي سني يوحد مناطق الغرب الإسلامي[110].

فقد درس الخليفة العباسي القادر على أحمد بن محمد الهروي[111]، وسعى بشدة نحو مجابهة التشيع[112]والاعتزال؛ اللذين انتشرا قبيل عهده بشكل لافت[113]، فألف كتباً للرد عليهم[114]، وأصدر أوامره بوقف دروسهم؛ وقطع مناظراتهم؛ وتوعد المخالفين بأشد العقوبة[115] ، واعتاد بلاطه عقد اجتماعات بحضور فقهاء السنة؛ لتحرير محاضر تقدح في نسب الخلفاء الفاطميين، وتنفي انتسابهم إلى على بن أبي طالب[116]. وكان للبقلاني -أستاذ أبي عمران- دور كبير في ذلك؛ حيث حشد طاقته الذهنية للطعن في نسب الفاطميين[117]، وألف في ذلك مؤلفات خاصة تهتك أستارهم وتكشف أسرارهم[118]، وهو ما حدا بالمالكية أن يعتبروه "سيف السنة ولسان الأمة" [119] و"حصنا من حصون المسلمين"[120] و"مجدد الدين على رأس المائة الرابعة"[121].

---

110 Cuoq J : Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest, des origines à la fin du XVIe siècle,paris,1984mp. 30.

111 الذهبي:السير، ج15، ص127.

112 ربما كانت الثورة العنيفة التي تعرض لها الفاطميون من قبل الثائر أبي ركوة كانت بتدبير من الخليفة العباسي القادر، حيث اعتمد هذا الثائر في ثورته على الدعوة لهذا الخليفة. ابن الأثير:المصدر السابق، ج8، ص42.

113 ابن تيمية:نقض تأسيس الجهمية، تحقيق محمد بن قاسم، ط1 1391هـ، مطبعة الحكومة، مكة، ج2، ص 331، المقريزي:السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق عبدالقادر عطا، ط1، 1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص125.

114 الذهبي:السير، ج15، ص128.

115 ابن الجوزي:المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1992م، ج15، ص 125.

116 ابن الأثير:المصدر السابق، ج8، ص310، أبو المحاسن:المصدر السابق، ج5، ص 52.

117 أبو المحاسن:المصدر السابق، ج4، ص75، الصفاقسي:نزهة النظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط1 1988م، ج1، ص 338.

118 أبو المحاسن:المصدر المصدر السابق، ج5، ص341، ابن خلكان:المصدر السابق، ج2، ص150. وانظر فهرست بهذه المؤلفات عند عياض: المدارك، ج2، ص ص 213-214.

119 الذهبي:السير، ج17، ص190.

120 عياض:المدارك، ج2، ص204.

121 ابن العماد الحنبلي:شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج2، ص169، عياض:المدارك، ج2، ص 205.

نحو تنفيذ الخطة، انتدب الباقلاني بعض تلامذته من مالكية المغرب لتولي المهمة، ولا شك أن نبوغ أبي عمران؛ وعلو كعبه المعرفي والذهني؛ وسعة إطلاعه وقوة حجته؛ قد لفتت نظر أستاذه الباقلاني، وأهلته للانضمام ضمن الثلة المختارة، فقد ذكرت المصادر[122]أن الباقلاني كان شديد الإعجاب بأبي عمران كثير الثناء عليه، حتى أنه اعتبره جامعاً لعلم مالك وناصراً له. ولعل في تردد أبي عمران المتواصل على بغداد إلى قبيل وفاته [123]ما ينهض دليلاً على مشاركته في تنفيذ تفاصيل تلك الخطة، من خلال إطلاع القائمين عليها بآليات تنفيذها وما يستجد من تطورات، وتلقى ما يُملى عليه عندهم من توصيات.

أيقن أبو عمران أن آليات خاصة ووسائل عدة يجب اعتمادها في تنفيذ الخطة المذكورة، يأتي في مقدمتها الالتزام ببرنامج تربوي تعليمي، يهدف نحو تكوين جيل مثقف؛ قادر على القيام بمهمة التغيير وتنفيذ مشروعه السياسي، وعليه، نفهم السر وراء حثه أولياء الأمور على ضرورة إلحاق أولادهم بالكتاتيب، وأفتى بأن " ينكل بمن امتنع من تسليم ولده إلى المكتب، ويجبر على ما ينوبه من أجرة المعلم، ومن أبى طُرد ونُفيَّ إن قُدر عليه، لهدمه ركناً من أركان الدين، ولا تجوز شهادته، ويؤدب أدباً وجيعاً"[124]. وللهدف ذاته؛ اجتهد في حشد أكبر عدد من التلاميذ في مجالسه العلمية، التي تعددت معارفها لتشمل القران وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، واللغة وآدابها، وتخرج على يديه فيها "خلق من الفقهاء والعلماء"[125]"من الفاسيين، والسبتيين، والأندلسيين"[126]. ولم يقتصر في التدريس على المجالس العامة؛ بل جعل من بيته مدرسة يقصدها الطلاب للمذاكرة والسماع من الفجر إلى الظهر[127]، ولذلك فقد أنكر على يهودي أن يدخل داره ووبخه بقوله" أما علمت أن داري كمسجدي"[128]

رغبة في دعم مشروعه السياسي وحشد أكبر عدد له من الأنصار، أدرك أبو عمران أهمية مناصرته لهموم الناس وقضاياهم، والارتقاء فوق الخلافات الفقهية الضيقة؛ التي استنفذت جهود الفقهاء، وأيقن ضرورة جمع الكلمة ونبذ الفرقة وتوحيد الصف، وحشد العامة نحو المصالح الاعتبارية الكبرى، ، فقد أهمه انشغال فقهاء القيروان في عصره بتافهات القضايا الدينية وانشغالهم بذلك عن حركة الانبعاث النهضوية؛ والاهتمام بمسارات الإصلاح؛ ومجابهة الظلم

---

[122] عياض:المدارك، ج2، ص 281، الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص160.

[123]عياض:المصدر السابق، ج2، ص205، ابن بشكوال:المصدر السابق، ص882، ابن عذارى:المصدر السابق، ج1، ص 275، الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص163.

[124]الشوشاوي:الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة، تحقيق إدريس عزوزي، نشر- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، 1409هـ/1989م، ص ص 291-292 .

[125]الذهبي: السير، ج17، ص545.

[126]عياض: المدارك، ج2، ص 280.

[127] الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص 160.

[128] نفسه.

والفساد، مما أوقعه في مواجهات قوية مع بعضهم[129]، وهو ما يفسر عزوفه عن تدريس القراءات والتجويد، واعتكافه على تدريس الفقه والحديث لتصحيح المسار الفقهي، ولما لهما من دور في التأثير السياسي على الناس[130]، وتحريه المسلك المقاصدي في فتاويه[131]، ومراعاته التيسير والتخفيف في التنزيل والإفتاء[132]، واستناده فيها إلى ما جرى به العرف لجمع الكلمة[133]، ونبذه الفرقة والخصام، وإلحاحه وحدة الأمة وترابط أفرادها، وسيادة روح الأخوة والتراحم والتعاطف بينهم[134]، وسعيه الحثيث نحو فض الخلافات التي كانت تدور بين الناس على أساس ديني وصلت بهم احياناً إلى درجة الاقتتال[135]، حتى اشتهر عنه انه كان لا يحدث بالأمور التي لا تقبلها عقول العامة [136]، ولم يستنكر عليهم أمورا جرت بها عادتهم في الأعياد والاحتفالات رغم اندراجها عند غيره من الفقهاء في دائرة البدع [137]. ونستأنس هنا برواية تتحدث عن اشتهاره بعفة اللسان؛ ونهيه اتهام أحد من المسلمين بالفسق، وتأكيده أن من شيم

---

[129] عياض:المدارك، ج2، ص 283، الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص168.

[130] الجزري:غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1352هـ/1933م، ج2، ص321- 322، الذهبي:القراء، ج1، ص 390 ، الذهبي: السير، ج17، ص 546.

[131]البرزلي:المصدر السابق، ج1، ص469، ج2، ص ص434، ج9، ص567، الونشريسي:المصدر السابق، ج2، ص362.

[132] تابع هذه الفتاوى عند:الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص162، ابن رفيع:معين الحكام على القضايا والأحكام، تحقيق محمد بن قاسم بن عياد، دار الغرب الإسلامي، 1989م، ج1، ص ص297، 306:البرزلي:الفتاوى، ج1، ص ص287، 469، القرافي:الذخيرة، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ج4، ص ص9، 135، ج12، ص378، الرجراجي:مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها، تحقيق أبو الفضل الدمياطي، نشر مركز التراث الثقافي المغربي بالدار البيضاء، ودار ابن حزم، بيروت، ط1، 2007م، ج1، ص ص332 ، 416، الرعيني:المصدر السابق، ج1، ص ص154، 174، 303، ج2، ص ص66، 273 ، 491، ج3، ص ص206، 367، 454، ج1، ص409، ج5، ص 178، ج7، ص 543.

[133] عياض: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تقديم محمد بنشريفة، دار الغرب الإسلامي، ط 2 ، 1979م، ص 275-276، البرزلي: المصدر السابق، ج2، ص309-310، الونشريسي: المصدر السابق، ج3، ص 299-300.

[134] البرزلي: المصدر السابق، ج3، ص ص 652-654.

[135] عياض:مدارك، ج2، ص 281.

[136]ابن عساكر:تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين العمرى، دار الفكر، بيروت، 1995، ج38، ص351.

[137] النفراوي:المصدر السابق، ج2، ص 649.

الأبرار ستر المعايب وكشف المحاسن[138]. وعليه نفهم السر وراء سعيه نحو استرضاء خصمه اللدود أبي بكر الخولاني؛ حتى لا يطمع فيها المعز بن باديس ليجد الحجة على العامة بشهادة احدهما على الآخر " إذ كانت العامة طوعهما، فلما اختبرهما في ذلك لم يجد عندهما ما يوافقه، ووجد ما بينهما امتن مما يظن"[139].

وبالموازاة، أدرك أبو عمران - وربما بتنبيه من بغداد- ضرورة كسب السلطة الزيرية، والاستناد إليها في دعم مشروعه الإصلاحي ومجابهة الشيعة، لا سيما وأن تبعية بني زيري للفاطميين كانت شكلية أكثر منها فعلية، تقتصر في أغلب الأحيان على بعض المظاهر الصورية[140]، كما تفاعلت العائلة الزيرية مع الاتجاه السني، ولا سيما المذهب المالكي، الذي لم يكن لدى الزيريين من الدوافع ما يملى عليهم الاستمرار في مناهضة رجاله، الذين تعاظم نفوذهم، وباتوا يتمتعون بسلطة روحية مشهودة لدى الأوساط الشعبية[141]، وهو ما دفع أمراء بني زيرى إلى إكرامهم وإغداق الأموال عليهم[142]، والاعتماد عليهم كبديل شرعي عن فقهاء الشيعة، والاستناد إليهم في تحقيق طموحاتهم الدفينة نحو الاستقلال عن الفاطميين، وهو ما يفسر غض بني زيري الطرف عن اغتيال المالكية للدعاة الشيعة بالقيروان[143]، وتعيينهم في مناصب القضاة[144]، ورفعهم الحظر الجزئي الذي كان مسلطاً على المذهب المالكي، حيث سمحوا بتدريسه في الأماكن العامة[145]، كما أن باديس انتدب مجموعة من المالكية للإشراف على تربية وتعليم ولده المعز حيث" دلوه على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة والشيعة لا يعلمون بذلك"[146]، وهو نص بالغ الدلالة على أن خطة مدروسة كان يتم تنفيذها في الخفاء بأيدي مالكية القيروان الذين كان أبو عمران في مقدمتهم.

يستشف من المصادر أن علاقة من التقارب والوفاق جمعت الفقيه أبا عمران والأمير المعز بن باديس، حيث تداخلت مصالح الطرفين –السلطوي والديني- نحو إقامة حلف مناهض للتشيع، ولا شك أن تمسك الأمير بالحزب السني، وسمو أخلاقه ، ونبل مقاصده، إلى جانب ما استأنسه فيه أبو عمران من ذب عن السنة وما تيقنه من دعمه للمذهب المالكي كان أزكى رصيد في هذا التقارب، فقد نشأ المعز في أحضان المالكية؛ وتربى على أعينهم،

---

[138] الرعيني:المصدر السابق، ج2، ص120

[139] عياض: مدارك، ج2، ص 279.

[140] الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص167.

[141] عياض:المدارك، ج2، ص ص229، 325.

[142] ابن عذارى:المصدر السابق، ج1، ص240.

[143] الدباغ: المصدر السابق، ج1، ص26.

[144] الدباغ:المصدر نفسه، ج3، ص 130. ، روجيه إدريس: المرجع السابق، ج2، ص ص 166، 168.

[145] عياض: مدارك، ج2، ص166، 224 ، 226 الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص ص 160 ، 161، 167.

[146] ابن عذارى:المصدر السابق، ج1، ص273-274. وبالموازاة فقد اشرف الباقلاني في المشرق على تربية ابن الملك البويهي عضد الدولة فناخسرو "فعلمه مذهب أهل السنة"، عياض: المدارك، ج2، ص208.

"وكانت أذنه "صاغية إلى مذاهب أهل السنة وربما كانت شواهدها تظهر عليه. . في أول ولايته"[147]، وكان يطالع أمهات الفقه المالكي، التي احتضنتها مكتبته الخاصة، [148]، واكتسب بجوار ذلك صفات محمودة، أطنبت المصادر في ذكرها، فقد كان"واسطة عقد بيته"[149] "حسن الخلق، بعيد الغور في الأمور"[150]" رقيق القلب خاشعا، متجنبا لسفك الدماء. . حليما . . . حسن الصحبة"[151] "جليلاً عالي الهمّة، محبّاً للعلماء، جواداً ممدّحاً، أصيلاً في الإمرة، حسن الديانة، حمل أهل مملكته على الاشتغال بمذهب مالك"[152]".

هكذا، ترد بالمصادر[153]عدة إشارات عن حضور أبي عمران في مجلس المعز، الذي كان يستشيره ويستفتيه بشكل خاص في عدد من المسائل الشرعية والسياسية[154]، تقديراً منه لمكانته العلمية ورجاحة عقله، ونضع في هذا السياق تلك الرواية التي تتحدث عن انتداب الأمير الزيري لأبي عمران للإجابة على مائة سؤال من فنون العلم وجمها احد علماء الأندلس لعلماء القيروان، أجاب عنها الفقيه ببراعة تامة، دعت الفقيه الأندلسي- إلى صياغة قصيدة شعرية يمدح فيها علماء القيروان وحاكم افريقية[155]، وما إدماج المعز بن باديس في هذا المديح إلا دليل على متانة علاقته بفقهاء المالكية وعلى رأسهم الفقيه أبي عمران؛ الذي صارت به القيروان موطن العلم الصحيح.

ضنت المصادر بهذه الأسئلة المائة التي أجاب عنها أبو عمران، باستثناء سؤال واحد يحمل بين طياته بعدا سياسياً، يتعلق بالأفضلية التي منحها الرسول -عليه السلام- لابنته فاطمة -رضي الله عنها- ومدى تفوقها على سائر نساء البيت النبوي.

على الرغم من صمت المصادر عن إجابة الفقيه على ذلك السؤال السياسي الهام، الذي يتعلق بالدولة الفاطمية الشيعية، فلا تعوز القرائن الدالة على موقف أبي عمران المتشدد تجاه الشيعة باعتباره قاعدة أساسية يقوم عليها مشروعه السياسي، فقد كان يكنى عاصمتهم بـ"المهدومة"، عوضاً عن المهدية، معتبراً إياها "عش كفرهم ودار

---

147 ابن خلدون: العبر، ج6، ص13.

148 الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص181. ومن أهمها كتب المدونة والنوادر والزيادات والموازية.

149 ابن خلكان:المصدر السابق، ج5، ص 233.

150 ابن عذارى : البيان، ج1، ص 296.

151 ابن الأثير : المصدر السابق، ج8، ص354.

152 الذهبي: العبر

153الدباغ:ج3، ص161، الصفاقسي:المصدر السابق، ج1، ص141.

154 ابن حزم: الرسائل، ج2، ص 87، الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص161.

155 عياض:المدارك، ج2، ص317، ابن عبد الملك: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، د. ت، س1، ص 94، ابن الابار:المصدر السابق، ج1، ص 25. ومن بين هذا الشعر قوله:

يا معزاً أعزّ أهل الدين وتردى بكل فضل مبين
فمن القيروان تبتغى المعاني وبها نشر كل علم مصون.

ضلالتهم[156]، تأييداً منه لفتوى اجمع عليها علماء القيروان بأن "حال بني عبيد، حال المرتدين والزنادقة، بما أظهروه من خلاف الشريعة، فلا يورثون بالإجماع، وحال الزنادقة بما أخفوه من التعطيل . . فيقتلون بالزندقة"[157]. كما حرصت فتاويه على مخالفة الشيعة، فقد أفتى بمنع الصلاة في المساجد التي بنيت بالمقابر[158]، وخالف الشيعة في اعتماد طريقة الحساب في معرفة الهلال، وأفتى بأن رؤية الهلال بشاهد واحد عدل تلزم الإمام العمل على خبره. [159] ، ولذلك فقد كان من جملة المالكية الذين نالهم أذى الحزب الشيعي من قبل، وهو ما أكده الناصري[160]بقوله"وكان فقهاء المالكية في ذلك العصر معهم في محنة عظيمة منهم ابن أبي زيد والقابسي وأبو عمران الفاسي وطبقتهم"، دون أن يحدد مظاهر هذه المحنة التي نالت الفقيه الفاسي.

مخالفةً للشيعة، ، تبنى أبو عمران الرؤية السنية الأشعرية التي ترفض النص شرطاً للإمامة؛ وتؤكد على أن الاختيار والنص هما طريق التعيين، وقام بتفنيد ما اعتمده الشيعة من تأويل بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بحجج منطقية[161]. ويبدو أنه كان يجاهر بتلك المواقف في دروسه العامة، حتى أن المعز بن باديس، دس له في إحدى هذه الدروس من يستفتيه في حكم الصلاة في الطرز التي تحمل أسماء بني عبيد، فأفتى بتحميل ولي الأمر مسئولية ذلك وأوجبه بضرورة منعه[162].

انطلاقاً من رؤية أشعرية تحض على ضرورة نصيحة الحاكم، وحرصاً منه على بتر التبعية الزيرية للفاطميين ولو بصورتها الشكلية، استغل أبو عمران لقاءً جمعه بالأمير المعز بن باديس ووجه له سؤالاً استنكارياً حول علة إبقائه على أسماء بني عبيد على السكة والبنود، فسعى الأمير إلى تطيب خاطره؛ واحتج بخوفه على الحجاج المغاربة الواردين على مصر من أذى الفاطميين" إما بقتل، أو اخذ مال، أو منع الطريق، أو غير ذلك"[163]

---

156 عياض :المدارك، ج2، ص 27.

157 عياض :المصدر نفسه، ج2، ص292.

158 الرعيني:المصدر السابق، ج3، ص54.

159 المواق:التاج والإكليل لمختصر خليل، دار الكتب العلمية، ط1 1994م، ج3، ص282.

160 المصدر السابق، ج1، ص194.

161 انظر نموذجاً لذلك عند ابن عساكر:تاريخ دمشق، ج38، ص 351. وعن رؤية الأشاعرة لمسألة الإمامة تابع: الباقلاني:كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تحقيق احمد عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1987، ص ص 471-472، الجويني:كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في الاعتقاد، تحقيق اسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1985، ص253.

162 الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص 167.

163 الصفاقسي: المصدر السابق، ج1، ص 368.

تدفع المعطيات الأنفة إلى الظن بأن الإجراءات التي اتخذها المعز بن باديس في اتجاه إحداث المقاطعة الكبرى مع الفاطميين كان لأبي عمران دور فيها، وإن لم تفصح عنها المصادر بشكل مباشر[164]، فقد دعم الأمير المذهب المالكي بشكل قوى حتى أنه حمل الناس على اعتناقه[165]، و قابل الرسالة التهديدية التي أرسلها له الوزير الفاطمي الجرجرائي بلهجة اشد وطئاً، وتعرض فيها بالتهجم على شرعية الخلفاء الفاطميين[166]، كما خاطب الحاكم بالله الفاطمي برسالة شديدة اللهجة أنكر عليه فيها أعماله الجنونية، فأجابه الأخير برسالة استرضاء طلب منه فيها إرسال فقيهين لتدريس المذهب المالكي بالقاهرة[167]، وكانت تلك الإجراءات موضع إعجاب وتبجيل من شعراء العصر الذين أشادوا بها وبالمعز فاعلها[168].

دعماً منه للمعز بن باديس في مساعيه الدبلوماسية المهدة لإحداث القطيعة مع الفاطميين، بتقربه من أعدائهم الألداء البيزنطيين والأندلسيين، أصدر أبو عمران فتوى تجيز للحاكم عقد هدنة مع الأعداء إن رأى في ذلك مصلحة ونفعاً[169]- ويبدو أنها تزامنت مع وصول هدية سنية من الإمبراطور البيزنطي إلى المعز عام 426هـ/1034م سعياً للمهادنة والصلح[170]-كما كان ضمن الوفد الذي انتدبه المعز بن باديس لاستقبال سفارة أمير دانية مجاهد العامري.[171]

وفي إطار تحقيق مكسب سياسي باستقطاب الأمير الزيري وكسبه في صف المعسكر السني لمواجهة معسكر الشيعة، انحازت بعض فتاوى أبي عمران لجانب السلطة، فقد أفتى بجواز فرض المكوس على الرعية[172]، وكراهة التهرب من دفعها[173]، وأجاز شهادة جامعي الضرائب باسم السلطان[174]، وأفتى بطاعة الحاكم فيما أمر[175]، وبكراهة

---

[164] انظر مثلاً كيف علق ابن عذارى على دوافع تقتيل المعز للشيعة بقوله " وتأويل ذلك وغيره ألفينا هنا عن ذكره"، المصدر السابق، ج1، ص 274.

[165] ابن خلكان:المصدر السابق، ج5، ص234.

[166] ابن خلدون:العبر، ج6، ص159.

[167] الذهبي:السير، ج15، ص175، أبو المحاسن:المصدر السابق، ج4، ص178

[168] ابن عذارى:المصدر السابق، ج1، ص 274.

[169] القرافي: الذخيرة، ج3، ص449 .

[170] ابن عذارى:المصدر السابق، ج1، ص 275.

[171] عياض:المدارك، ج2، ص 317، ابن عبد الملك:المصدر السابق، س1، ص94، ابن الأبار:التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1995، ج1، ص 55.

[172] البرزلي: المصدر السابق، ج3، ص 27.

[173] البرزلي:المصدر نفسه، ج4، ص272، ج10، ص408. وبذلك خالف أبو عمران فتوى أئمة مالكية معتبرين ذهبوا إلى جواز أن يتحايل ذلك الشخص في إسقاط تلك المظالم عن نفسه. الداودي:كتاب الأموال، تحقيق رضا شحاده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 2008م، ص179.

الخروج على الإمام المكروه من الجماعة أو عزله لأي غرض دنيوي[176]، كما أفتى بجواز التعامل بالدراهم الزائفة[177]، مبرراً للسلطة قيامها بغش العملة[178]؛ ومعتبراً إياها ضرورة اقتصادية، وأجاز للإمام عدم الاختلاط بالناس في صلاة الجماعة، مبرراً بذلك للمعز اتخاذه ديوان خاص لهذا الغرض[179] [180]، كما أوجد له أرضية شرعية تبرر عقده معاهدات مع القوى النصرانية وقبول هداياهم[181].

غنية هذه الفتاوى عن التأكيد على دلالتها التبريرية وصيغتها الأشعرية، والتي جسد من خلالها أبو عمران رؤية الأشعري التي أكد فيها جواز صلاة العيد والجمعة خلف كل بر وفاجر، والدعاء لائمة المسلمين بالصلاح، وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف، وأن لا يقاتلوا في الفتنة، ويرون النصيحة لجماعة المسلمين[182].

ينفرد ابن حزم[183] برواية تتحدث عن موقف سياسي بارز للفقيه أبي عمران تجاه الأمير المعز بن باديس، الذي أغراه موقفه المتصلب تجاه الشيعة، وما صاحبه من حشد شعبي ومباركة مالكية، ودفعه نحو محاولة إعلان نفسه خليفة، فاستشار أبا عمران قبل إقدامه عليها، فأجابه قائلاً:"إن النص لم يجوّز الخلافة إلا في قريش. . إنك إنما تريد بهذا الشقاق والارتفاع عن المسالمة، وهذا لا يتم لك، لأنك إذا فتحت هذا الباب تسمى بها كل من أردت التفوق عليه من مصاقبيك وغيرهم، فبطل ما اختصصت به، وهان هذا الأمر ولم تفقد شيئاً، فسمع المعز له، وترك ما أراد

يحمل هذا النص بين طياته عدة دلالات:

---

[174] البرزلي:المصدر السابقج1، ص 469.

[175] ابن الشماع الهنتاتي:مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام في القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرع الله من الحدود والأحكام، تحقيق عبد الخالق احمدون، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، 2003م، ص150.

[176] البرزلي:المصدر السابق، ج4، ص10، الرعيني:المصدر السابق، ج2، ص 431.

[177] الرعيني:المصدر السابق، ج6، ص 482، ج7، ص 271.

[178] عن مشاركة السلطة الزيرية في ضرب المسكوكات المغشوشة انظر:الونشريسي: المصدر السابق، ج6، ص ص 74، 305 ، 312، 313.

[179] الرعيني:المصدر السابق، ج2، ص453. وهو ما أفتى به أستاذه الأصيلي لابن أبي عامر في الأندلس، عياض: المدارك، ج2، ص 243.

[181] القرافي: الذخيرة، ج3، ص449.

[182] الأشعري:مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق نعيم زرزور، المكتبة العصرية، القاهرة، ط1 2005م، ج1، ص 228.

[183] ابن حزم:الرسائل، ج2، ص 87.

أولا:أدراك الفقيه المالكي حجم التبعات الملقاة على عاتقه، واستثماره وجوده ضمن حاشية الأمير الزيرى في تأسيس أرضية ثابتة تحكم علاقة فقهاء المالكية بالسلطة الزيرية، تقوم على مبدأ التعاون مع السلطة، مع الحرص في الوقت ذاته على إبقاء مسافة فاصلة بينها، من شأنها أن تتيح له مراقبة سياسة السلطة، وإبداء تحرزاته وانتقاداته حيالها، وتضمن له في الوقت ذاته حضوره الفاعل وسط الجماهير، ونضع في هذا الإطار تلك الرواية التي تتحدث عن استنكاره على الأمير ابن باديس اتخاذه بطانة من اليهود، كما أمر بصبغ طرف عمامة طبيبه الخاص[184].

ثانيا:تجلي أشعرية أبي عمران في أسلوب الإجابة المعتمد على الخطاب العقلاني المستند إلى النص؛ أو الأخذ بمنهج الاستدلال لبرهنة صدق المقولات الدينية[185]، وهو ما يمثل مرحلة النضج للمذهب الأشعري الذي ساهم فيه تلامذة أبي الحسن الأشعري وعلى رأسهم الباقلانى[186]، فضلاً عن اخذ أبي عمران بمبدأ أساس في الفكر الأشعري وهو دعم الخلافة العباسية؛ باعتبارها الخلافة الشرعية؛ والدفاع عنها ونبذ ما دونها، وهى المهمة التي تحملها الفقيه في بغداد، وصار ملزماً بالوفاء بها.

كما يكشف النص عن تمسك أبي عمران بثابت آخر من ثوابت الأشاعرة في مسالة الإمامة -والذي خالفوا فيه بعض المتكلمة- وهى" القرشية"، والتي كان من الممكن أن تدخل في محل الاجتهاد، لولا أنهم استندوا إلى الإجماع في إثبات هذا الشرط، نظراً لان الأحاديث الواردة فيه لا ترقى إلى درجة اليقين لاندراجها في أحاديث الآحاد، فضلاً عن إمكانية تأويلها، ناهيك عما ترتب على هذا الشرط من إخلال وهدم لشروط الكفاية وتناقضه أحيانا مع شرطي العلم والدين[187].

ثالثاً: إحاطة أبي عمران بأحداث عصره وإدراكه لحركة التاريخ وما يتحكم فيها من قوانين، فقد طرق ذلك الباب من قبل القائد البويهي عضد الدولة فناخسرو؛ الذي ألح على تسمية نفسه بالخلافة، بمباركة من الفقيه المتكلم الحسين بن على البصري الذي كتب له مؤلفاً جمع بين دفتيه قرائن في تخوله هذا الأمر في غير قريش، مما تسبب في إحداث ثورة

---

184 الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص161.

185 ابن خلدون:المقدمة، ج3، ص33.

186 النباهي:المصدر السابق، ص37، ابن عساكر:تبيين كذب المفتري، ص217، ابن خلدون:المصدر السابق، ج3، ص 34. وقد قسم الباقلاني الدليل إلى ثلاثة أنواع :الدليل العقلي والدليل السمعي والنقلي والدليل اللغوي. انظر كتابه: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق محمد زاهد الكوثري، طبعة مؤسسة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1382 ه، ص 15.

187 انظر تفصيلا لموقف الأشاعرة من هذا الشرط عند الباقلانى:التمهيد، ص ص 471-472، الجوينى : الإرشاد، ص359، ابن خلدون:المقدمة، ج1، ص 336 .

عارمة وفتنة هوجاء بين أهل خراسان؛ كادت أن تعصف به[188]. وهو ما كان حاضراً في مخيلة أبي عمران وهو يحذر الأمير الزيري من مغبة "الشقاق والارتفاع عن المسالمة" [189].

رابعا: يؤكد النص على رفعة مكانة أبي عمران عند الأمير الزيزي المعز بن باديس، والتي جعلت منه ليس فقط مرجعية فقهية بل رفعته إلى درجة المستشار السياسي في مسائل تعد مصيرية، كان الأمير ينزل فيها إلى رأى أبي عمران كما يظهر من العبارة الواردة في النص : " فسمع المعز له، وترك ما أراد"، فهل يمكن الاستناد إلى ذلك للقول بدور فاعل لأبي عمران في تهيئة المعز بن باديس لإحداث القطيعة الكبرى مع الفاطميين والدعوة للخلافة العباسية، وهو القرار الذي اتخذه المعز، ولم يمهل القدر أبا عمران لمعايشته؟[190]

رغم المبادرات الهامة التي قام بها المعز بن باديس لتدعيم المذهب السني المالكي ومواجهة الفاطميين الشيعة، وظهور إرهاصات تنبئ برغبته في إعلان القطيعة عنهم، إلا أن مجموعة من العقبات واجهت سلطة هذا الأمير، وأضعفت من قوته؛ وشتت جهوده في أكثر من جبهة، وأقنعت أبا عمران بعدم قدرة السلطة الزيرية على تبني مشروعه السياسي الضخم، بإقامة دولة قوية موحدة قادرة على لم شتات الغرب الإسلامي المتمزق، فقد تعرضت دولة المعز لغارات شرسة من قبل زناتة تكررت أعوام 415هـ، 420هـ، 427هـت، 428هـت، هددت حاضرة دولته وتسببت في إحداث الاضطرابات والقلاقل في البلاد[191]، وفي عام 413 هـ أعلن حاكم طرابلس الثورة على المعز وتعاهد مع زناتة وأدخلهم المدينة فعاثوا فيها نهبا وقتلا[192]، وفي عام 423هـ ثارت ضده منطقة نفطة وأعلنت الاستقلال[193]، كما توالت ضده انشقاقات بني حماد مما اجبره على التنازل لهم عن المغرب الأوسط[194]

في الوقت الذي أدرك فيه أبو عمران عجز الأمير الزيري عن القيام بمشروعه الطموح[195]، بدأت تلوح أمامه قوة أخرى فتية، كانت مؤهلة لتنفيذ مشروعه السياسي والوصول به إلى مراميه النهائية؛ وترجمته لواقع سياسي –

---

188 ابن حزم:الرسائل:ج2، ص86.

189 ابن حزم :نفسه، ج2، ص 87.

190 أكد ابن عذارى انه في عام 440هـ "قطعت الخطبة لصاحب مصر وأحرقت بنوده. . . وأمر المعز بن باديس بان يدعى على منابر افريقية للعباس بن عبد المطلب، ويقطع دعوة الشيعة العبيديين. . ولما كان عيد الأضحى أمر الخطيب أن يسب بني عبيد"، ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 277. وقد أتى هذا الحدث بعد وفاة أبي عمران الذي أجمعت جل المصادر على تحديد سنة 430هـ بعام وفاته.

191 ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص ص 270، 274.

192 ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص138.

193 ابن الأثير: المصدر نفسه، ج8، ص205.

194 ابن الأثير :المصدر نفسه، ج7، ص485، ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص90، العبر، ج6، ص158.

195 يمكن أن نضيف للمسالة بعداً تنجيمياً استناداً إلى ما حُكي عن رجل يدعى عبد الكافي بن سليمان، عاصر هزيمة المعز بن باديس أمام الأعراب حيث قال :"كنا عند ابن محرز حين وصل الخبر بكسر المعز وأخذ أمه وأخيهن

عسكري على ارض المغرب، ونقصد بها صنهاجة الجنوب، وذلك من خلال لقائه الشهير بالأمير الجدالي يحيي بن إبراهيم، الذي عرج في طريق عودته من الحج عام 427هـ على القيروان، والتقي أبا عمران، ووضعا سوياً الخطوط الكبرى لقيام دولة المرابطين[196].

لقد تماست طموحات الرجلين خلال هذا اللقاء في نقطة مشتركة تطمح نحو تأسيس دولة قوية تتبنى المذهب السني وتعمل على ترسيخ جذوره، وتقوم على أساس الحق ومجابهة الظلم ورد المظالم والتصدي للتيار الشيعي ومقاومة الحركات البدعية، وانتشال الغرب الإسلامي من حالة الفرقة والتشرذم، من خلال التمهيد لقيام دولة كبرى قادرة على ملا فراغه السياسي.

وأدرك الطرفان –بما لهما من رصيد سياسي- أن نجاح هذه الخطوة يحتاج إلى قواعد ثلاث تقوم عليها الدول وتتأسس بها الممالك، وهي:الدعوة الدينية والعصبية والثروة، تلك التي حددها الماوردي[197]في قوله:" فأما تأسيس الملك فيكون في تثبيت أوائله ومباديه، وإرساء قواعده ومبانيه، وتنقسم ثلاثة أقسام: تأسيس دين، وتأسيس قوة، وتأسيس مال".

أما عن القسم الأول وهو الدين- أو ما عبر عنه ابن خلدون[198] " بالدعوة الدينية" - فقد كان مطلباً رئيساً للأمير يحيي بن إبراهيم الجدالي، الذي آلت إليه رئاسة صنهاجة اللثام بعد استشهاد صهره ابن تيفاوت اللمتوني[199] في إحدى غزواته ضد قبائل السودان الوثنية[200]، وكان يطمح نحو تأسيس دولة كبرى تسيطر على بلاد المغرب،

فقام عنا في الحال فأخرج ملحمة فيها جميع ما جرى في هذه القضية، فعجبنا من ذلك، ثم ذكر أنه سأل عن ذلك الشيخ أبا عمران فأجاب بما يقال في ذلك، ومنه التنجيم" ابن الأزرق:المصدر السابق، ص 151.

[196] يرجى مراجعة الدراسة الجادة للباحث المغربي إبراهيم القادري:" خبايا رحلة يحيي بن إبراهيم الجدالي إلى الحج حوالي 427هـ-دراسة في مكونات الصلة بين الرحلات الحجية والدعوات السياسية"، ضمن كتابه تاريخ الغرب الإسلامي-قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1 1994م، ص ص54-62.

[197] تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محيي الدين هلال السرحان، دار النهضة العربية، 1981 م، بيروت، ، ص153.

[198] المقدمة، ج1، ص 267.

[199] يبدو أن هذا الأمير كان أول من فكر في أهمية الاتصال بمالكية المغرب في سبيل إقامة دولته، ولعله اتصل بالشيخ القابسيالذي كان على دراية بأحوال بلاد السودان وطبيعة أهلها، انظر الونشريسي:المصدر السابق، ج9، ص116، ج10، 135 أثناء رحلة حجه التي توفي بعدها في واحدة من مغامراته العسكرية لنشر الإسلام في الصحراء، وانه أوصى خليفته يحيي بن إبراهيم الجدالي بضرورة العمل على دعم مالكية القيروان لإتمام الزحف الصنهاجي غرباً وشمالاً.

[200] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 122، الناصري: المصدر السابق، ج2، ص5،

وأدرك أن أنجع الأساليب الكفيلة بإقامتها يكمن في استناد عصبية صنهاجة إلى دعوة دينية قادرة على لم شتات العصبية، والتمهيد لقيام الدولة، وهي قاعدة قامت على أساسها دويلات مغربية عدة خلال هذه الفترة؛ فضلاً عن قناعته بان فشل الأحلاف التي سبقته بين قبائل صنهاجة يرجع في الأساس إلى تركيزها على أهداف مادية صرفة، وتهميشها للأبعاد الروحية، التي تتآلف وتتآزر حولها العصبية[201]، فضلا عن أن أشياخ القبائل الموجودة بالمنطقة قد رفض الواحد منهم أن " ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيله"[202]، مما يزيد من أهمية الدين في تطويع هذه القبائل، حيث شاع خلال تلك الفترة أن الملك إذا تأسس على الدين"أذعنت النفوس لطاعته، واشتدت في مؤازرته ونصرته، . . فملك القلوب والأجساد، واستخلص الأعوان والأجناد"[203]، ولعل في إلحاح الأمير الجدالي على أبي عمران في أن يرسل معه "من يثق بعلمه ودينه، ليعلمهم ويقيم أحكام الشريعة عندهم" [204] "ويدعوهم إلى الكتاب والسنة، ويعلمهم شرائع الإسلام"[205] واقعاً يؤكد إدراكه للأهمية القصوى لهذا البعد الديني في تأسيس الدولة المنشودة.

وعليه، فلا يمكن الاعتقاد بان عروج الأمير الجدالي على القيروان في طريق عودته من رحلة الحج كان أمراً اعتباطياً، أو صدفة جادت بها الأقدار حسب تعبير البعض[206] ، فإذا ما نحينا جانباً احتمالية لقاءٍ سابق جمع الرجلين في مكة؛ وأنهما واصلا سوياً الطريق إلى القيروان، وذلك لغياب المادة المصدرية[207]، فان الأمير الجدالي قد وجد في شخص أبي عمران الداعية القادر على تكريس المالكية لخدمة أهدافه السياسية، ففضلاً عن أن هذا الفقيه قد ذاع صيته في الغرب الإسلامي -بما في ذلك صحراء الملثمين -، باعتباره "إمام وقته"[208]، و"عالم المغرب"[209]، و"شيخ المالكية في زمانه"[210]، الذي "اشتهر ذكره وانتشر علمه" [211]، فإن دوره كرجل إصلاحي يجابه الظلم والفساد قد شاع

Terrasse, H. ,*Histoire du Maroc* ,t. I, Casablanca, 1949,p. 213.

[201] حيث كان الهدف الأساس لهذه التحالفات هو فرض الإتاوات على القوافل؛ ومدافعة مملكة غانة؛ ومحاولة السيطرة على منافذ وطرق تجارة العبور. انظر ابن حوقل:المصدر السابق، ص ص97-98، البكري: المصدر السابق، ص164، ابن أبي زرع:المصدر السابق، ص121.

[202] ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص10.

[203] الماوردي: المصدر السابق، ص155.

[204]البكري: المصدر السابق، ص 165.

[205]ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 122.

[206]محمد عثمان المراكشي:الأول من الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة، الرباط، 1937، ص17.

[207] تردد أبو عمران على المشرق الإسلامي بشكل لافت خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته. ابن عذارى:المصدر السابق، ج1، ص275، الدباغ:المصدر السابق، ج3، ص 163.

[208] الضبي: المصدر السابق، ص606، الحميدي: المصدر السابق، ص 538.

[209] الذهبي:الحفاظ، ج3، ص1097، عياض: مدارك، ج2، ص280.

[210] أبو المحاسن: المصدر السابق، ج5، ص77، الذهبي: طبقات المحدثين، ص 34.

وفشا في مضارب صنهاجة، ونستأنس هنا برواية ابن الأحمر[212] التي تؤكد أن الأمير الجدالي وأصحابه قد عرجوا على القيروان " يتبركون بالعلامة أبي عمران الفاسي، حيث بلغهم أن أهل فاس أخرجوه من مدينة فاس لنهيه لهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغارم وأخذهم أموال الناس بغير حق".

وفي المقابل، فطن أبو عمران لأهمية العصبية والثروة في نجاح مشروعه السياسي وقيام دولته المنشودة، لأنه لا ينتدب للملك إلا "أولو القوة، و. . ذو القدرة. . . وهذا إنما يتم لجيش قد اجتمعت فيه ثلاث خلال: كثرة العدد، وظهور الشجاعة، وتفويض الأمر إلى مقدم عليهم إما لنسب وأبوة، وإما لفضل رأي وشجاعة"[213]، أما المال فإنه إذا كثر رفع الهمة، واحدث " طمعاً في الملك وقل أن يكون هذا الأمر إلا فيمن له بالسلطة اختلاط وبأعوان الملك امتزاج فيبعث مطامع الراغبين فيه على طاعته وتسليم الأمر إلى زعامته"[214].

أدرك أبو عمران -بما له من حس سياسي ودراية بقبائل المنطقة- أن صنهاجة اللثام تمثل القوة العسكرية والمادية التي يمكن الارتكان إليها في تنفيذ مشروع إقامة الدولة السنية المالكية في المنطقة، فقد اشتهرت هذه القبائل بكثرة العدد[215] وكان" فيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم، ولهم ملك يملكهم ويدبرهم، تكبره صنهاجة وسائر أهل تلك الديار، . . . وفيهم البسالة والجرأة والفروسية. . والشدة" [216] " يختارون الموت على الانهزام، ولا يحفظ لهم فرار في زحف"[217].

ورغبة منه في التأكد من قوة عصبية صنهاجة وخلو حقلها من الدوائر المذهبية والنزعات المناوئة للمذهب المالكي فانه استفسر الأمير الجدالي عن قومه وما "ينتحلونه من المذاهب"[218] ، فلما اطمئن إلى ذلك صرح أن الأمير الصحراوي مع تواضع معارفه الشرعية كان "صحيح النية واليقين " [219]

أما الثروة؛ فقد كانت صنهاجة اللثام من اغني قبائل البربر"وأكثرهم مالا"[220]، اشتهر أهلها بأنهم"أرباب نعم جزلة وأموال جليلة"[221]، حتى أصبح "سائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال"[222]، وهي مقومات فطن أبو

---

[211] الضبي: المصدر السابق، ص 607.
[212] المصدر السابق، ص ص 27-28.
[213] الماوردى: المصدر السابق، ص155.
[214] الماوردى: المصدر نفسه، ص 156.
[215] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 120، الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، 1923م ص239، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 203.
[216] ابن حوقل: المصدر السابق، ص 98.
[217] البكري: المصدر السابق ، ص 166.
[218] البكري:المصدر نفسه، ص 165.
[219] نفسه.

عمران لأهميتها بعد أن اخبره الأمير الجدالي عن "نسبه "[223]و"قبيلته ووطنه، فذكر له انه من الصحراء من قبيلة جدلة إحدى قبايل صنهاجة" [224]، واعلمه " بسعة بلاده وما فيها من الخلق"[225].

يُفهم من بعض النصوص أن الفقيه المالكي وضع مع الزعيم البربري الخطوط الأولى لقيام دولة صحراوية على أسس دينية صحيحة، هدفها الأبرز القضاء على الفوضى السياسية والدينية التي كان يتخبط فيها المغرب منذ سنوات عدة، فحين اجتمع أبو عمران مع يحي بن إبراهيم " ندبه إلى قتال برغواطة، وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم، واستنزال رؤسائهم من الولاية، فوعده يحي بالنهوض إلى ذلك"، ولعله هو المعنى المقصود في رواية البكري[226]التي ذكرت أن أبا عمران حث الأمير الجدالي على " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وهو ما عبر عنه ابن خلدون [227]بقوله "وما شافههم به من فروض أعيانهم".

تجلت عبقرية أبي عمران في اختيار الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة ، حيث عدل عن طلبته القيروانيين[228]، وفضل تكليف شخص آخر أقرب إلى حقل التغيير، وأدرى ببيئة صنهاجة، وأعرف بلسانهم، فكان اختياره لتلميذه وجاج بن زللو اللمطي، الذي كان قد تلقى – من قبل- العلم على أبي عمران في القيروان ثم السوس الأقصى، وكان " فقيهاً حاذقاً تقياً ورعاً. . . له تلاميذ جمة يقرءون عليه العلم"[229]، قد اتخذ داراً للعلم تسمى "دار المرابطين" [230]، كانت من المناطق التي ظلت تمثل المجال الرعوي المفضل لبعض قبائل صنهاجة الصحراء قبل أن يزعجها عنه الزناتيون[231].

ترك الأمير الجدالي القيروان موليا وجهه شطر بلاد السوس ، حاملاً معه رسالة الفقيه أبي عمران إلى تلميذه وجاج بن زللو، الذي أحسن قراءة ما بين سطورها من أبعاد، فجاء اختياره لتلميذه عبدالله بن ياسين تنفيذاً

---

[220] ابن حوقل: المصدر السابق، ص 97.
[221] البكري: المصدر السابق، ص 158.
[222] ابن حوقل: المصدر السابق، ص 96.
[223] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 122.
[224] مجهول: الحلل الموشية، ص 19، ابن عذارى: المصدر السابق، ج4، ص7.
[225] ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص122.
[226] البكري: المصدر السابق ، ص 165. .
[227] العبر، ج6، ص182.
[228]ورد على لسان أبي عمران حين طلب منه الأمير إرسال فقيه لهدف التعليم " إني قد عدمت بالقيروان بغيتكم، وأما بملكوس ففيها حاذقاً ورعاً قد لقيني. . يقال له وجاح بن زلوي". انظر:البكري: المصدر السابق، ص 165.
[229] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 123.
[230] التادلي: المصدر السابق، ص89.
[231] ابن خلدون:المقدمة، ج1، ص257، العبر، ج6، ص69.

لوصية أبي عمران الذي ألح عليه في الرسالة أن يختار للمهمة من يثق "بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته"[232]، وكان عبدالله بن ياسين أهلاً لهذا الاختيار، حيث نجح في تحقيق المشروع الذي تبلور في ذهن المفكر الأول في تأسيس دولة المرابطين "أبو عمران الفاسي".[233]

صفوة القول، إن الاستقصاء الواسع النطاق لشتى أنواع المصادر، كشف عن الفكر الاشعري للفقيه أبي عمران الفاسي، الذي تبناه لعدة عوامل دينية وعلمية وسياسية، وانه قد تاثر في ذلك ببعض أساتذته الذين تلقى العلم على أيديهم، لا سيما القابسي والباقلاني. وقد كان لهذا الفكر اكبر الأثر على مسيرته السياسية، التي تجلت منذ فترة مبكرة في موطن رأسه مدينة فاس، التي تم طرده منها على يد حكامها بمباركة فقهاء السلطة التقليديين، الذين اتهموه في عقيدته نتيجة اعتناقه للاشعرية، واشتغاله بعلم الكلام، فكان اختياره لمدينة القيروان، والذي لم يكن أمراً اعتباطياً، وهناك ذاعت شهرته العلمية، وطارت فتاويه الفقهية، وتعددت مواقفه السياسية، ومبادراته الإصلاحية، وجعلت منه زعيماً شعبياً التفت حوله العامة، وكانت طوع يده، مما لفت إليه أنظار المعسكر السني/الأشعري، لا سيما في بغداد، ليتم الاعتماد عليه في تنفيذ خطة محكمة تهدف نحو تطويق المعسكر الشيعي من الشرق والغرب، والاستناد قدر المستطاع على السلطة الزيرية، التي سعى أبو عمران على توثيق علاقته بأفرادها.

كما اتضح أن عروج الأمير الجدالي يحيي بن إبراهيم على القيروان عام 427هـ ولقائه بابي عمران لم يكن أمراً عفوياً، أو فكرة عارضة، بل كان هدفاً سياسياً لكلا الطرفين، يطمح نحو التعاون من اجل إقامة دولة سنية مالكية تجمع شتات الغرب الإسلامي وتنتشله من حالة الفرقة والتشرذم، فكان مشروع تأسيس دولة المرابطين، التي قامت على أساس الحق ومجابهة الظلم ورد المظالم والتصدي للتيار الشيعي ومقاومة الحركات البدعية.

ولكن هل التزم فقهاء الدولة المرابطية وحكامها بتعاليم الفقيه أبي عمران وبافكاره، وبتلك الشعارات التي تم رفعها بغية جمع الأنصار وحشد الأعوان؟ نترك الإجابة عن هذا السؤال لدراسات أكثر تفصيلاً.

---

[232] ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 123.

([233] انظر بهذا الخصوص:

Norris: New Evidence on the Life of ʻAbdullāh B. Yāsīn and the Origins of the Almoravid Movement,:,Journal of African History,t. 12,1971,p. 255-268.

1